

عقيدة أبي العتاهية

للأستاذ محمد أحمد برانق

المدرس بمدرسة طنطا الثانوية

قبل أن نتحدث عن عقيدة أبي العتاهية ، ونحاول تصويرها ؛ يجب أن نعرف منزلته الاجتماعية والذسية ، وفي أي عصر عاش ، وإلى أي حد شغلت المسائل الدينية عقول المفكرين في عصره ، ومدى التأثير الذي وصلت إليه ؛ فإن العصر الذي يعيش فيه الإنسان والظروف المحيطة به ، وما يشملها من أخذ وردأ وما تنفرج عنه الآراء المختلفة ، وما يتبين من مناقشتها — كل ذلك يؤثر فيه تأثيراً ، قليلاً أو كثيراً ، يرجع إلى مقدار ارتباطه بتلك الظروف ، وقدرته على فهمها وتكييف مسائلها .

وأبو العتاهية كان من غمار الناس ، فانه مولى عَنَزَى (١) من قبل أبيه ، وزهرى من قبل أمه ، وكان أبوه حجاماً ، ثم كان هو وإخوته يصنعون الجرار الخضر ، ولذلك لم يستطع أن يصاول بنفسه ، ويفاخر بأبيه وجده ، وقد جاذبه يوماً رجل من كنانة في شيء ، فقخر عليه الكنانى ، واستطال بقوم من أهله ، فقال أبو العتاهية :

دعنى من ذكر أب وجد^١ ونسب يعليك سور المجـد
ما الفخر إلا فى التقى والزهد وطاعة تعطى جنان الخلد
لا بد من ورد لأهل الورد إما إلى ضحل وإما عـد^٢

(١) ولا يدفع هذا ما ذكر من أن محمد بن أبي العتاهية يزعم أنهم من عنزة النسب لا بالولاء

(٢) الضحل : الماء القليل على الأرض لا عمق له . والعد : الماء الجارى الذى له مادة لا تنقطع : كماء العين

عاش أبو العتاهية في عصر كانت العقول قد بدأت فيه تتجه في أمور الدين اتجاهاً جديداً ، ولم ترض النفس بالتسليم بما جاء في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، من غير أن يحكموا العقل في أكثر الأمور ، ويناقشوا كل ما يعرض لهم من مسائل تتعلق بالتوحيد والصفات والوعد والوعيد وغير ذلك . ساعدتهم على ذلك كثرة من دخلوا في الدين من علماء الأعاجم ، وترجمة الكتب الرومانية واليونانية والهندية والفارسية والسريانية ونحوها ، لا سيما ما كان منها خاصاً بمسائل الإلهيات والفلسفة والمنطق .

كان النضج العقلي لأبي العتاهية في النصف الثاني من القرن الثاني ، فانه ولد سنة ١٣٠ هـ ، وبقي حياً إلى أن مات سنة ٢١٠ ، وقيل سنة ٢١١ ، وقيل سنة ٢١٣ . وأيا كانت سنة وفاته فهو قد عاصر في رجولته المهدي والرشيدي والمأمون ، وكانت له مع كل منهم أخبار وحوادث .

نشأ أبو العتاهية بالكوفة ، وأقام في بغداد حاضرة العباسيين ، ومنبع النور والعرفان إذ ذاك ، ومحط رحال العلماء والشعراء والمترجمين ، وكعبة القاصدين من أطراف البلاد الإسلامية ؛ لأخذ البدر التي كان ينشفعها الخلفاء الشاعر إذا رضوا عن قصيدته ، والمجادل إذا انتصر في حجاجه ، والعالم إذا أثار مسألة أظلمت برأى غيره ، وهكذا

كان أبو العتاهية في صغره حسن الهيئة ، جعند الوفرة ، أفتح الشعر ، أبيض اللون ، نحيل الجسم بمشوقاً ، وكان لبقاً ، فصيحاً ، زكياً ، ذهنياً ، وكل هذه من خلق الله

أما الصفات الجسمية فليس لأحد أن يشك فيها ، ويكادون يتفقون على أنه كان وسيماً خفيف الظل ؛ وأما الصفات النفسية ، وهي اللباقة والفصاحة والزكوة والذهن ، فهي صفات قد يكتسب الشخص شيئاً منها بالمران ، وكثرة الاتصال بالناس ، ولكن أبا العتاهية في أول أمره كان لا يختلط إلا بمن هم على شاكلته من الخرافين ، وصانعي الجرار ، وتجارها ، وهؤلاء لا يكتسب أحد منهم لباقة

ولا حصاة ولا زكنا، وهو إنما كان يقصده زمن شبابة المتأدبون والأحداث،
فينشدونهم ما عسى أن يفتح الله به عليه من الشعر، فيأخذون قطع الخزف ويكتبون
فيها ما ينشدونهم، فهذه الصفات النفسية كانت لطبع فيه، فهي موروثة أو موهوبة،
وليست مكتسبة ولا متصنعة، وأما أثر هذه الصفات في تفكيره واعتقاده،
فمن المعقول أنه لم يظهر في أيام صباه، فقد كان له في مزاولة الخزافة، وبيع الجرار
بالكوفة، ليكسب من ورائها رزقه - ما يشغله عن التفكير في أمر عقيدته
وفيما عسى أن يختار لنفسه من المذاهب التي كثر حولها الجدل في ذلك الزمان،
ولعل أول ما عرفه الأحداث أنه اجتاز في أول أمره، وعلى ظهره قفص فيه
فخار يدور به في الكوفة ويبيع منه، فربفتان جلوس يتذاكرون الشعر
ويتناشدونه، فسلم، ووضع القفص عن ظهره، ثم قال: يا فتيان، أراكم تذاكرون
الشعر، أفأقول شيئاً منه فتجيزونه؟، فان فعلتم فلکم عشرة دراهم، وإن لم تفعلوا
فعلیکم عشرة دراهم، فمزتوا منه وسخروا به، وقالوا: نعم، قال: لا بد أن يشتري
بأحد القهارين رطب يؤكل، فانه قمار حاصل، وجعل رهنه تحت يد أحدهم،
ففعلوا مثله، فقال: أجزوا :

ساكني الأحداث أتم

وجعل بينه وبينهم وقتاً في ذلك الموضع إذ ابلغته الشمس، ولم يجيزوا البيت،
فغرموا الخطر، وجعل يهزأ بهم وتممه :

مثلنا بالأمس كنتم

ليت شعري ما صنعتكم أربحتم أم خسرتكم؟

وإن ما كان يقرضه من الشعر في الكوفة ليس إلا شيئاً يتكلم به، ويسرى
عن نفسه بعض ما يلاقيه من العنت والإرهاق من مزاولة تلك الصنعة الحظيرة
طول يومه، وكان يسره أن يهتم بشعره الأحداث والشداة، فيجتمعون حوله،
ويسمعون إنشاده، ويطربون له، فيستهويه طربهم منه وإعجابهم به، فيزيد في
قرض الشعر، وإنشاد الأحداث والشداة على هذا الوجه، ولعلك سائل نفسك
في هذا الموضع: ما هو الشعر الذي كان يقرضه أبو الغتاهية حين ذاك، ففسر

بسماعه الأحداث ؟ إتي لم أعثر على شيء من شعره في ديوانه أو في غير ديوانه من المظان التي بين يدي ، والتي فيها شعر لأبي العتاهية — قد بقي على أنه قرضه في الكوفة ، وأنه كان ينشده في حلقة الصبيان ، فيعجبون ويظربون ؛ ومع ذلك فهل يكون هذا الشعر في شيء غير الغزل الرقيق ، أو يكون إلا في وصف شيء من الأشياء التي يحبها الشباب يجرى في عروقه الدم الحار ، ويمتلئ جسمه فتوة ، يحب المرح ويميل إلى اللهو ؟ إن شعره يغلب أن يكون في هذا النوع ، ولو لم يكن فيه وحده لبرم به الشبان ، وستموا إنشاده ولم يعاودوه ، ثم ماذا كان يغريهم بلقاء جرار وابن حجام ، مثل أبي العتاهية النزيل بهم ، فهو وضع من وضع (١) ، وهو غريب عنهم ؟ فلو لا أنه عرف كيف يستهويهم ، ويجمعهم حوله ، بالضرب على الوتر الذي كانوا يحبونه ، لما حفلوا به ، ومن يدري ؟ لعله كان في ذلك رواج لبضاعته ، التي كان لا يزال إلى اليوم يكسب منها عيشه الذي يقوت به نفسه وأخاه ؟

وبما ضاع من شعره الذي كان يقرضه هناك أيضاً ما كان يقرضه في بني معن بن زائدة ، إذ كانت بينه وبينهم خصومة ، ومنه ما ذكر من أن عبد الله بن معن تهدده وخوفه فقال يهجوهم :

يا صاحبي رحلتى ، لا تكثرا في شتم عبد الله من غذل
سبحان من خص ابن معن بما أرى به من قلة العقل
قال ابن معن ، وجلا نفسه : على من الجلوّة يا أهلي
أنا فتاة الحى من وائل في الشرف الشامخ والنبل
مافى بنى شيان أهل الحجى جارية واحدة مثلى

واستمر على هذا النحو من الهجاء حتى أقذع وأخش ، فانتقم منه عبد الله بمثل ما هجاه به ومن واديه (راجع الأغاني ج ٤ ص ٢٢٠ والديوان ص ٢٢٤) ثم كان بينه وبين بني معن هؤلاء ما وقعت بسببه خصومة طويلة ، فانه كان كلما مضوا في مغاضبته أمعن هو في هجوهم ، والنيل منهم ، والتعنت عليهم ، واتصل

هجاؤه لهم ، حتى قال في عبد الله وكان قد تهدده وتوعده بالشر إن هو شب
بجاريته سعدى :

ألا قل لابن معن ذا الذي في الود قد حالا
لقد بلغت ما قال ، فما باليت ما قال
ولو كان من الأسد لما صال ولا هالا
فصنع ما كنت حليت به سيفك خلخالا
وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا
ولو مد إلى أذنيه كفيه لما نالا
قصير الطول والطيلة لاشب ولا طالا (١)
أرى قومك أبطالا ، وقد أصبحت بطالا
قال عبد الله : ما لبست سيفي قط فرأيت إنسانا يلحنى ، إلا ظننت أنه يحفظ
قول أبي العتاهية في فلذلك يتأملنى ؛ فأخجل - يريد بذلك قوله :

فصنع ما كنت حليت به سيفك خلخالا
وما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا

من ذلك تعلم أن شعره في أول أمره كان كشعر غيره من الشعراء في أول
أمرهم ، ولما شدا وترعرع ، وجد الشعر منبع رزق لا يغيض معينه ، فمدح وهجا
وخاصم وعاند ، وخشيه الأشراف فصالحوه ، إلا أن هذا النوع من شعره عامة ،
وما قرضه منه في الكوفة خاصة - لم يصلنا منه إلا نزر يسير ، لا يكاد يصور لنا
طرفا من حياته الأولى صورة واضحة ، ولكن الذي نجزم به ، أنه ما كان يلبس
وهو في الكوفة أبراد الزاهدين ، وما كان إلا شاعرا شابا شأنه شأن الشبان
لا يجرى على ألسنتهم ذكر الموت والقبر والتشر والحشر والحساب والثواب
والعقاب واللجنة والنار إلا بقدر ، وهمهم من الحياة غالبا عيشة راضية يغلب
عليها المرح والسرور . وساعد أبا العتاهية على ذلك طبع فيه ؛ أما التنسك فانه
يغلب ألا يكون في غير الشطر الثاني من العمر ، إلا إذا أحاط بالإنسان ظروف

وملابسات خاصة تجعله يحرى على غير الغالب والمألوف . وكان في أبي العتاهية انحناءات وتكسر، وحمل زاملة المختشين في الكوفة زمن شبابه ، وهذا مضافا إلى أدبه ، جعل مصنع الخزافة حلقة أدب ، وقد ظل في حاله من التخنت ، وحمل زاملة المختشين حتى استبانت سته ، فعوتب في ذلك ، وأنكره بعض الناس عليه ، وقال له : أمثلك يضع نفسه هذا الموضع مع سنك وشعرك وقدرك ١٢ ، فقال له : أريد أن أتعلم كيادهم ، واتحفظ كلامهم . وقد أغراه جنون شبابه أن يحب امرأة نائحة من أهل الكوفة ، بها حسن ، وفيها جمال ، ولها دلال ، وشيب بها ، ثم لم يلبث أن ملها ، وبرم بها ، واجتواها ، واتهمها بالنساء ، وقال في ذلك شعراً (١)

عرف أبو العتاهية ، وذاع صيته في الشعر ، وخشيه أشراف الكوفة ، وقربه كثير منهم ، وناخوا عنه ، حتى إن عبد الله بن معن أراد يوماً عقابه على هجو قاله فيه ، فضربه مائة سوط ليس بالمبرح تغيظاً عليه ، وإنما لم يغلظ في ضربه تقيّة منه ، وخوفاً من كثرة من يعنى به ؛ ولما ساء بني معن هجاؤه ، مضوا إلى مندل وحيان العزيين ، وهما من بني عمرو بن عامر ، بطن من يقنّدم بن عزة ، وكانا من سادات أهل مكة — فقالوا لها : نحن بيت واحد وأهل ، ولا فرق بيننا ، وقد أتانا من مولا كم هذا مالو أتانا من بعيد الولاء لوجب أن تردعاه . فأحضرا أبا العتاهية ، ولم يكن يمكنه الخلاف عليهما ، فأصلحا بينه وبين عبد الله ويزيد ابني معن ، وضمننا عنه خلوص النية ، وعنهما ألا يتبعاه بسوء ، وكانا ممن لا يمكن خلافهما ، فرجعت الحال إلى المودة والصفاء ، فجعل الناس يعدلون أبا العتاهية على ما فرط منه ، ولامه آخرون في صلحه لهما ، فقال :

ما لعذالي ومالي ؟ أمروني بالضلال
عذلوني في اغتفاري لابن معن واحتمالي
إن يكن ما كان منه فبئجرمي وفعالي
أنا منه كنت أسوا عشرة في كل حال
قل لمن يعجب من حسن رجوعي ومقالي :

(١) راجع كتاب الأغاني ج ٤ ص ٢٤

رب ود بعد صد وهوى بعد تقالى
قد رأينا ذا كثيرا جاريا بين الرجال
إنما كانت يميني لطمت منى شمالي

هاجر أبو العتاهية من الكوفة إلى بغداد في زمن المهدي ، وكان محتثا لا يزال على حاله في الكوفة : يحب النساء ، ويشبب بهن ، ويتعرض لهن ، وله مع عتبة جارية المهدي حديث طويل ، وكان لا يتورع عن أن يشبب بها في حضرة الخليفة وفي مجلسه ، حتى إنه عند ما قال :

ألا ما لسيدتي ما لها ؟ أدلا فأحمل إدلالها !
والأ فقيم تجنت وما جنيت ؟ سقى الله أطلالها
ألا إن جارية للإمام قد أسكن الحب سربالها
مشت بين حور قصار الخطا تجاذب في المشي أكفالها
وقد أتعب الله نفسي بها وأتعب باللوم عذالها

مال بشار إلى أشجع السلي تليذه ، وقال : ويحك يا أخا سليم ! لا أدري من أى أمره أعجب ؟ أمن ضعف شعره ؟ ، أم من تشبيهه بجارية الخليفة يسمع ذلك بأذنه

ونحن وإن كنا لم نعرف بالضبط السنة التي هجر فيها الكوفة ونزح إلى بغداد ، فإنها كانت على أى حال زمن المهدي ، حيث اتصل به ولازمه ، ولطف بحله عنده ، فكان يجالسه ويسايره ويسمر عنده ، ويخرج معه للصيد ، ويتشفع فيمن يغضب منهم المهدي ويتغيب عليهم ، فيقبل شفاعته ، ويعفو بعد أن يأمر بالجر على الوجوه ، والالقاء في السجن ، ثم هو يجلس معه وقد ماتت ابنته فحزن عليها وامتنع من الطعام والشراب ، فيعزيه ، فيقبل عزاه ، ويقول له : أحسنت ويحك وأصبت ما في نفسي ، ووعظت وأوجزت ، ثم أمر له لكل بيت بألف درهم .
وكان يتصل بهارون بن المهدي ولا يتصل بالهادي ، فلما تولى الهادي الخلافة تنكر له ، ولم يحظ عنده ، ولكن أبا العتاهية ، وهو الشاعر اللبق الحصيف المطبوع ،

لم يعز عليه أن يترضى الهادى ، ويستل سخيمته بشىء هين عليه ، رخيص عنده ، لا يكلفه ما يكلف غيره من العنت والارهاق ، وكد الذهن ، وكدح الخاطر ، ذلك هو آيات من الشعر تجعله راضيا عنه ، بعد أن كان واجداً عليه ، وقد كان ذلك ؛ فانه غسل وجده بآيات مدحه بها ، ثم نال جائزة بقصيدة أنشدها بين يدي الخلافة ، ويظهر أنه كان لا يحب الهادى ؛ لأنك لو رجعت إلى تلك الآيات التي مدحه بها ، وإلى القصيدة التي أنشدها بين يديه - لم يستهوك شعرها ، ولم تطرب له ، بل لا تكاد تصدق أنها من شعر أبى العتاهية ، ولكن قريحته لم تبق جامدة حين أراد أن يقرض فى الهادى شعرا ، بل لانت وسلست ، فدحه وهناه ، وصحبه وحظى عنده ، حتى إنه عندما مات الهادى . وطلب إليه الرشيد أن يقول شعرا ، امتنع ، فحبسه الرشيد ، وبقي فى الحبس مدة .

إلى الوقت الذى اتصل فيه أبو العتاهية بالرشيد لم يبين لنا أنه صاحب مذهب دينى خاص ، ولم نعرف أنه لبس مسوح الزاهدين ، ولكنه شاعر يتكسب بشعره ، فتروج سوقه ، ويربح مالا كثيرا يكتنزه ، ويحرص عليه حرص الجبان على روحه ، بدأ بعد ذلك ينحو نحواً جديداً فى شعره ، وحديثه لجلساته ، ونظام حياته : بدأ يذكر الله والموت ، ويذم الدنيا ، ويغضها إلى الناس ، ويعجب من تهاقهم عليها ، وتكالبهم على نعيمها ، ويصفهم بالفقلة والغرور ، وينسب كل شىء إلى الله . واعتنق مذهب الجبرية ، الذين ينفون الفعل حقيقة عن العبد ، ويضيفونه إلى الرب (١) ، وكان هذا المذهب قد ظهر فى أواخر أيام نبي أمية ، واعتنقه بعض الناس .

والذى يبدو لنا أن أخلاق أبى العتاهية ، لم تخرج عن أخلاق كثير من الشعراء فى زمانه ، وفى غير زمانه ، فهم فيما أعتقد قوم لا يثبتون على مبدأ ، ولا يقيمون على شىء واحد ، فحبهم ، وبغضهم ، وولاؤهم وعدم ولائهم ، لا يستقر ، وإنما يلبسون لكل حالة لبوسها ، ويسيرون فى ركاب من يظنون أن الخير آتيهم منه ، ومن يرون أن الدنيا أقبلت عليه ، فاذا ولت عنه الدنيا ، ولوا عنه على إثرها ،

(١) راجع كتاب الملل والنحل ج ٢ ص ١٠٨ .

لا يتذمّون ولا يتلومون ، وأبو العتاهية واحد من هؤلاء الشعراء ، طينته من طينتهم ، وخلقه من خلقهم ، فهو لم يثبت في نسبه ، ولا في خلقه ، ولا في مذهبه ، وساعده على ذلك طبع فيه ، فانه كان يحب الشهرة والمجون والعتة . أما في نسبه ، فانه ادعى أنه عنزي بالنسب تارة ، وبالولاء تارة أخرى ، وما زال بالعزيين حتى التصق بهم واستعداهم يوماً على جزار غيره بأنه نبطي وقال لهم : إن فلانا الجزار قتلني وضربني ، وزعم أني نبطي ، فان كنت نبطيا هربت على وجهي ، وإلا فقوموا فخذوا لي بحقي ، فقام معه مندل بن علي وماتعلق نعله غضبا ، وقال له : والله لو كان حقلك على عيسى بن موسى لأخذته لك منه ، ومرمعه حافيا حتى أخذ له بحقه

هذا الذي آلمه أن ينسب إلى أهل النبط ، والذي استعدى العزيين على من نفي نسبه عنهم ، والذي جامله العزيون ، فأدالوا له من صاحبه ، والذي كان للعزيين عنده المقام الأول ، وكان لا يمكنه الخلاف على مندل بن علي وأخيه حيان العزيين الفقيهين ، وقد كانا من أشرف الكوفة ، فهما نفاعان ضراران - هذا الرجل عاوده الخلق الغالب على الشعراء حينما هاجر من الكوفة إلى بغداد حيث ترك عنزة والعزيين ، وأصبح لا يرجو نفعتهم ، ولا يخشى بأسهم ، فخلع نسبه إليهم وتبرأ منهم ، ولبس في نسبه ثوبا جديدا ، ذلك هو نسب اليمانية ، لأنه قدم على بغداد غريبا ، وأراد أن يتقرب من الخليفة ، ولكنه لا يستطيع أن يدعي أنه من نسبه لآبيه ، فاتصل بخال الخليفة المهدي وهو يزيد بن منصور ، لأنه عرف أنه لطيف المحل عند ابن أخته ، فهو يقدمه إليه ، ويقربه منه ، ويشفع له إذا احتاج إلى شفاعته ، ويزكيه عند توزيع العطايا على الشعراء . ولم يكتف بالاتصال بيزيد ابن منصور ، فانه ألحق به نفسه ، وألصق نسبه ، وادعى أنه مولى من موالى اليمانيين ، وانتفى من عنزة وتبرأ منهم ، ومدح اليمانية ، ومن ذلك قوله

سقيت الغيث يا قصر السلام فنعم مِجْلَّة الملك الهام
لقد نشر إلا له عليك نورا وحفك بالملائكة الكرام
سأشكر نعمة المهدي حتى تدور على دائرة الحمام
له بيتان : بيت تبغى وبيت حل بالبلد الحرام

وكان يزيد هذا من أكرم الناس وأحفظهم حرمة ، وأرعاهم لعهد ، وكان باراً بأبي العتاهية ، كثيراً فضله عليه ، وكان أبو العتاهية منه في منعة وحصن حصين مع كثرة ما يدفعه إليه ، ويمنعه من المكاره ومع أنه أحسن فقهه في ماله وفي نسبه ، ووجدته في شعره وفي بشره ، كما قال هو عندما رثاه ، وفي أنه ساء من أجله منظره ومخبره - فانه لم يقيم على ولائه له ، ولم يبق يمانيا ينتسب لليمانية ، ويفخر بهم ، كما كان يفعل من قبل ، فقليل له في ذلك ، فقال : ذلك شيء احتجنا إليه في ذلك الزمن ، وما في واحد ممن اتعميت إليه خير ولكن الحق أحق أن يتبع ، وكان ادعى ولاء اللخمين - من ذلك تعلم أنه كان ينتسب إلى من يجد الخير فيهم ، ويتلمس المنفعة من ورائهم ، فاذا قضى منهم غايته أو انقطع أمله فيهم فلم يدر درهم عليه ، ولم تهطل سحائبهم في جيوبه ذهباً ودرا ، انتفى منهم ، والحق نسبه بغيرهم ، فهو في الكوفة عزى ، وفي بغداد يمانى أولخى :

هذا الذى جرى عليه أبو العتاهية في نسبه ، هو بعينه الذى جرى عليه في مذهبه ، أما في الكوفة فالتنازل نستطيع أن نحدد له مذهبا خاصا كما قدمنا ، ولا سيما أن أكثر شعره هناك ضاع ، ولم يصل إلينا منه إلا القليل جدا ، فهو لا يصور لنا حياته هناك أوضح التصوير ، وإن كان يغلب عليه إلا نخثات والمجون والتعته كما ذكرنا - وهو في بغداد جرى غالبا على ما جرى عليه في الكوفة حتى زمن الرشيد ، فانه أراد أن يتزهد ويتنسك ويخرج من حالة المجون والمرح إلى حالة أخرى هي منها في التقىض ؛ صور من نفسه رجلا متزهدا متقشفا ، يلبس الصوف ؛ ويترك المنادمة ، ويحجب شعر الغزل ، ويباعد بينه وبين حياة المجون ، حتى إن الرشيد ، ولى نعمته في عصره ، ومقدمه على كثير من الشعراء ، طلب إليه يوما بعد إعلان تنسكه للناس أن يقول شعرا في الغزل ، فأبى ، فوجد عليه ، فضربه ستين عصا وحلف ألا يخرج من حبسه حتى يقول شعرا في الغزل ؛ ويظهر أن هذه كانت نوبة من نوبات تعته ، فانه خالف سيده ، ولم يأبه بغضبه ، ولم يردعه عقابه ، بل قال وقد رفعت عنه المقارع : كل مملوك له حر ، وامراته طالق ، إن تكلم سنة إلا بالقرءان ،

أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولعل عناده هذا ، وصلابة رأيه امام الخليفة -
هو الذي جعل الخليفة يتعزن منه ويأمر بحبسه ، ومع ذلك فهو غير حاقق عليه ،
ولا غير آمل في رضاه ، فلم يشأ تعذيبه في السجن ، ولم يحل بينه وبين من يريد
الدخول عليه ، فقد يكون من هؤلاء من يصلحه ، ويرده إلى طاعة الخليفة . وقد
كان من قبل لا يفارقه في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج ، فوسط الفضل بن
الربيع بينه وبين الخليفة ، وكتب إليه بعد أن استبطأ رجاءه :

أجفوتني فيمن جفاني وجعلت شأنك غير شاني ؟
ولطالما أمتشني بما أرى كل الأمان
حتى إذا انقلب الزمان على صرت مع الزمان
وكتب إلى الرشيد ، يترضاه ويستعطفه :

أنا اليوم لي والحمد لله أشهر يروح على أهم منكم ويكر
تذكر أمين الله حقى وحرمتى وما كنت توليني لعلك تذكر
ليالي تدنى منك بالقرب مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لي بالعين التي كنت مرة إلى بها في سالف الدهر تنظر
فلم يحفل الرشيد بقوله ، ولما ضاق صدره ، وسئمت نفسه بيتا صغيرا هو خمسة
أشبار في مثلها ، صاح :

أرقت وطار عن عيني النعاس وبام السامرون ولم يواسوا
أمين الله ، أمنك خير أمين ، عليك من التقى فيه لباس
تسامن من السماء بكل بر ، وأنت به تسوس كما تسام
كأن الخلق ركب فيه روح له جسد وأنت عليه راس
أمين الله ، ان الحبس باس وقد أرسلت : ليس عليك باس
وله شعر كثير في الحبس يستعطف به الرشيد فلم يعطف عليه ، حتى عاد إلى
الشعر الغزلي ، وحنث في يمينه كما تؤكد أكثر الروايات ، وإحداها مروية عن
ابنه محمد ، وبما قاله وهو محبوب :

يا ابن عم النبي سمعا وطاعة قد خلعنا الكساء والدراعه
ورجعنا إلى الصناعة لما كان سخط الامام ترك الصناعة (١)
وقال أيضا:

أما رحمتي يوم ولت فأسرعت وقد تركتني واقفا أنلفت
أقلب طرفي كـ أراها فلا أرى وأحلب عيني درها وأصوت
فلم يزل الرشيد متوانيا في إخراجها إلى أن قال :

أما والله إن الظلم لوم وما زال المسمى هو الظلوم
إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم
لأمر ما تصرفت الليالي وأمر ما توليت النجوم
تموت غدا وأنت فريز عين من الغفلات في لجج تعوم
تنام ولم تتم عنك المنايا تنبه للنبيـة ياتووم
سل الأيام عن أمم تقضت ستخبرك المعالم والرسوم
تروم الخلد في دار المنايا وكـم قد رام غيرك ما تروم
ألا يأيها الملك المرجى عليه نوااض الدنيا تحوم
أقلني زلة لم أجر منها إلى لوم وما مثلي ملوم
وخلصني تخلص يوم بعث إذا للناس برزت الجحيم
وبعد أن خرج وقف أمام الرشيد وأنشده :

يا عتب سيدتي أمالك ديني حتى متى قلبي لديك رهين
وأنا الذلول لكل ما حملتني وأنا الشقي البائس المسكين
وأنا الغداة لكل باك مسعد ولكل صب صاحب وخدين
لابأس، إن لذاك عندي راحة للصب أن يلقي الحزين حزين
يا عتب أين أقر منك أميرتي وعلى حصن من هواك حصين؟

(١) وقيل : إن هذين البيتين لبس لابن العنابية ، ولكنهما لاسحاق بن ابراهيم
الموصلى حينما أظهر التوبة ، وغير زيه واحتج عن حضور دار السلطان فبلغه أن
الأمون وجد عليه من ذلك وتكر ، فكتبهما إليه ، ثم غنى فيهما - الأغانى ج ٥ ص ٣٥٤

فأبو العتاهية يتزهد، ويلبس الصوف، فاذا ضيق عليه خلع صوفه، ويلبس لبوسه الأول، وقرض الشعر في الغزل، ولو أنه كان فعل ذلك عن عقيدته راسخة يطمئن إليها قلبه، لما بالى خشونة العيش، ومرارة الحبس.

ولقد قرأت أن كثيراً من الناس عذبوا ليدوا رأيا غير ما يعتقدون، فلم يفعلوا، وقد أدى ذلك إلى تعذيبهم، وتشديد النكير عليهم، بل إلى إتلاف أنفسهم، ومع ذلك فهم على مذاهبهم باقون ثابتون. أما أبو العتاهية فانه تزهد لا حباً في التزهد. ولكنه رجل شاعر سلك بشعره هذا المسلك؛ لأنه زعم أن له خيراً فيه. روي عنه أنه قال: «إن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر، ولا طلاب الغريب، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد، وأصحاب الحديث، والفقهاء، وأصحاب الرياء، والعامّة، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه»، فهو يستحسن مذهب الزهاد في الشعر، ولذلك سلكه، وهو يقرر أنه ليس من مذاهب الملوك، ولا من مذاهب الرواة، وأن أشغف الناس بهذا اللون من الشعر، إنما هم الزهاد أنفسهم، وأهل التقى والورع والمرامون، فهو أراد أن ينشر شعراً من هذا النوع ليرضى الزهاد، وأهل التقى والورع. لا لأنه زاهد وتقى وورع، فلما رأى أن فيه تضيقاً عليه، وإغضاباً للخليفة، لم يقتصر عليه، بل قاله مع غيره بما يحب الخليفة ويهوى. ولست مؤمناً بأن ما قاله في الزهد كان أكثر مما قاله في غيره، وأن ما وصل إلينا من شعره أكثر من تسعة أعشاره في زهدياته، لأنه إنما أظهر زهده في زمن الرشيد، أي بعد أن ملأ الكوفة غزلاً ومدحاً وهجاء. وبعد أن ملأ بغداد زمن المهدي والهادي وصدر خلافة الرشيد، بمثل ذلك. وأخبره مع عتبة جارية المهدي مذكورة مشهورة، فأين كل هذا الشعر؟ إنه قد ضاع. وذكر صاحب الفهرست أنه رأى من شعره بالموصل نيفاً وعشرين جزءاً بخط ابن عمار كاتب شعر المحدثين، وذكر أن ما رآه يدل على أنه من ثلاثين جزءاً (١). ويظهر أنه اهتم في أيامه

الآخيرة بقرض الشعر في الزهد مع غيره ، ولكنه كان أحرص وأبقى على زهدياته منه على غزلياته ، وقصائده مجونه ؛ أو أن شعره في الزهد وقع لجماعة من المجبرة ، ووجدوا فيه قوة لهم فنقلوه وتداولوه ، فوصل هو دون غيره .

والشاعر إذا كان مرآياً ينظم في غير ما يعتقد ، فانه يخونه حرصه أحياناً فيدبر منه ما ينم عن حقيقته . وأبو العتاهية كان يظهر الزهد ، ويبالغ في ذلك ويكثر من شعر الزهاد ، ويذكر دائماً الدنيا وبلائها ، والموت الذي لا بد أن ينتهي إليه كل آدمي ، إلا أن الانحناء كان يعاوده أحياناً ، فيشهر به أعداؤه ، ويحاولون إثارة سخط العامة عليه ، وكان من هؤلاء منصور بن عمار الذي رماه بالزندقة لحاجة في نفسه ، فانه قيل : إن منصوراً هذا لما قص على الناس خبر البعوضة ، قال أبو العتاهية : إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفي ، فبلغ قوله منصوراً ، فقال : أبو العتاهية زنديق ، أما ترونه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار ، وإنما يذكر الموت فقط ، ، فبلغ ذلك أبا العتاهية ، فقال فيه :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
كالملبس الثوب من عرى وعورته للناس بادية ما إن يواربها
فأعظم الإثم بعد الشرك فعله في كل نفس عماها عن مساوئها
عرفاتها بغيوب الناس تبصرها منهم ولا تبصر العيب الذي فيها
كما شفع عليه بقوله في عتبة :

كان عتابة من حسنبا دمية قس فتنت قسبا
يارب لو أنسيتها بما في جنة الفردوس لم أنسها
والحق أن منصور بن عامر لم ينصف أبا العتاهية بأنه رماه بعدم ذكر الجنة والنار في شعره — وقد جراه في ذلك كثير من العلماء من بعده — لأن أبا العتاهية ذكر ذلك في مواضع كثيرة من شعره المله كور في ديوانه ، ومن ذلك قوله :

فلو كان هول الموت لأشياء بعده لهان علينا الأمر واحتقر الأمر

ولكنه حشر ونشر وجنة ، ونار وما قد يستطيل به الخبر (١)
وقوله :

أيها ذا الناس ما حل بكم عجا من سهوكم كل العجب
وسقام ثم موت نازل ثم قبر ونزول وجلب
وحساب وكتاب حافظ وموازن ونار تلهب
وصراط من يقع عن حذره فالى خزي طويل ونصب
ولئن كان أبو العتاهية زنديقاً حقاً ، إنه ما كان يستطيع أن يظهر ذلك
وخلفاء المسلمين أولياء نعمته ، ومقدموه فى مجالسهم ، ومحبو شعره ، وما نحوه
جوائزهم ؛ ولو كان زنديقاً حقاً ، لما حال بينه وبين أن يعمل ما يريد إذا خلا
إلى نفسه ، وأمن الوشاة وعيون الخليفة . والذى قرأناه من ذلك أن أبا العتاهية
كان يقنت فى الليل ، ولقد رآته امرأة ليلة ، فروت عنه أنه يكلم القمر ، واتصل
الخبر بحدويه صاحب الزنادقة ، فصار إلى منزلها ، وبات ، وأشرف على أبي
العتاهية ، ورآه يصلى ، ولم يزل يرقبه حتى قنت وانصرف إلى مضجعه ، وانصرف
حدويه خاسئاً .

يتبين من هذا أن الحديث عن زندقته فيه وهن وضعف . بقى أن نعرض أنه
كان جريئاً ؛ ولعل هذا هو الذى اشتهر عنه ، إذ لولا ذلك لما وقعت له مناظرات
مع زعماء المعتزلة فى عصره ، ومنهم بشر بن المعتز ، وثمامة بن الأشرس ، وهو
وإن كان قليل المعرفة ، ضعيف الحجة ، غير متفقه فى مسائل النظر والجدل ؛ فانه
كان لسان المجبرة الشاعر ، لا لسانهم المناظر ، ولهذا كان يفحمه مناظره متى
وقعت بينهما المناظرة ، ويعيره بأنه شاعر لا شأن له بالجدل (٢) — وأبو العتاهية
حينما تزهد ، احترق الحجة ، فقابلته يوماً بشر بن المعتز ؛ وقال له : بلغنى

(١) تراجع صفحات الديوان ٣ ، ٥ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥١ ، ١٠٢

١٠٦ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٤

(٢) تراجع مناظرته لثمامة بين يدي المأمون : الأغاني ج ٤ ص ٦

انك لما نسكت جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل ، أ كذلك كان ؟ قال : نعم
قال له : فما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضع من نفسى حسبما رفعتنى الدنيا
وأضع منها ليسقط عنها الكبر ، وأكتسب بما فعلته الثواب ، وكنت أحجم
اليتامى والفقراء خاصة ، فقال له بشر : دعنى من تذليلك نفسك بالحجامة ، فانه ليس
بحجة لك أن تؤدبها وتصحبها ، بما لعلك تفسد به أمر غيرك ، أحب أن تخبرنى
هل كنت تعرف الوقت الذى كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا
قال : هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن يخرج على قدر
طبعه بما إذا زادت فيه أو نقصت منه ضرر المحجوم ؟ قال : لا ، قال : فما أراك
إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين

وسئل يوما عن خلق القرآن ؛ فقال : أسألتنى عن الله أم عن غير الله ؟
فقال له السائل : عن غير الله ، فأمسك ، فأعاد عليه السؤال ، فأجابه أبو العتاهية
هذا الجواب ، حتى فعل ذلك مرارا ، فقال له السائل : ما لك لا تجيبنى ؟ قال :
أجبتك ولكنك حمار

فأبو العتاهية شاعر أجاد القول فى الغزل والمدح والهجاء ، أولا ، ثم تزهد
فأجاد القول فى الزهد وما يتصل به من ذم الناس وتقبيح الدنيا ، والدعاء إلى عدم
الاكتراث بها ، ولكن شعره فى زهده لا يمثل حقيقة نفسه ؛ كما أن شعره فى
المال والدعوة إلى عدم العناية بحفظه ، والتكالب على جمعه — لا يمثل خلقه ، فهو
من أبخل الناس الذين حفظ لنا التاريخ نواذر مخلصهم ، وأما أن شعره قوى فى هذا
وذلك فلأنه شاعر مطبوع قدير . ينكر أبو نواس على نفسه أنه أشعر الناس والشيخ
حى (يريد أبا العتاهية) ، ويغضب ابن الأعرابي على من يذم شعره ، ويقسم
أنه مارأى شاعرا قط أطبع ولا أقدر منه ، ويقرر أنه ما يحسب مذهبه فى الشعر إلا
ضربا من السحر ، وهو الذى يقول عن نفسه ، إنه ما أراد الشعر قط إلا مثل له ،
فيقول ما يريد ويترك ما لا يريد ، وهو الذى يرى جعفر بن يحيى أنه أشعر الناس
فى عصره ، فيوافقه الفراء ، بل كان الناس يزدون لشدة إعجابهم ، ويزعمون أنه
أشعر الانس والجن مبالغة فى تقديرهم له ؛ وشاعر هذا أمره ، يقول فى الزهد

فيجيد ، وقد يكون من أبعد الناس عن الزهد ؛ ويشعر في الجود والكرم ويحيد ،
وهو أبخل أهل عصره — جدير بأن يقول الناس عنه ما قالوا . ومهما يكن من
أمر أبي العتاهية ، فإن سلوكه مسلك النساك ، ومحاولته الظهور بمظهر الزهاد ،
غير نسج شعره كثيرا ، وألبسه ثوباً جديداً ، غير الذي كان يلبسه من قبل ،
ولعل ذلك أكثر ما يكون وضوحاً في قائد الرثاء ، لأنها ألصق فنون الشعر
بالتزهد ، وفيها المظهر لمذهب الشاعر ونزعة التي ينزع إليها ؛ اقرأ قوله يرثي زائدة
ابن معن بن زائدة وهو يومئذ بالكوفة ، أي أنه ما كان يعرف طريق الزهاد بعد .

حزنت لموت زائدة بن معن حقيق أن يطول عليه حزن
قى الفتيان زائدة المصنى أبو العباس كان أخى وخدنى
قى قوم وأى قى توارت به الأجفان تحت ثرى وركن
ألا يا قبر زائدة بن معن دعوتك كى نجيب فلم تجبني
سل الأيام عن أركان قوم أصبن بهن ركناً بعد ركن

فهو يحزن لفقد زائدة ، ويطيل عليه حزنه ، ويذكر بعضاً من صفاته ، ثم يناجي
قبره ؛ وهذا المنحى ، معروف في الرثاء ، يسلكه أكثر الشعراء . ثم اقرأ قوله عند
أول عهده ببغداد ، يرثي يزيد بن منصور خال المهدي ، وكان باراً بأبي العتاهية
كثيراً فضله عليه . وكان أبو العتاهية في منعة وحسن حصين ، مع كثرة ما يدفعه
إليه ، ويمنعه من المكاره ، كما تقدم . فلما مات قال أبو العتاهية يرثيه :

أنى يزيد بن منصور إلى البشر أنى يزيد لأهلى البدو والحضر
يا ساكن الحفرة المهجور ساكنها بعد المقاصر والأبواب والحجر
وجدت فقدك فى مالى وفى نسي وجدت فقدك فى شعرى وفى بشرى
فلمست أدرى جزاك الله صالحة أنظرى اليوم أسوأفك أم خبرى

فهو لا يرثي يزيد أكثر مما يرثي به زائدة في الكوفة ؛ ينعاه ، ويندبه ، ويندب
فجميعته فيه بعد موته ، ويحس فقدته في عوارفه وأفضاله التي كان يسبغها عليه .

ثم هو بعد ذلك يرثي ابنه المهدي فيقول :

ما للجد يدن لا يبلى اختلافهما وكل غصن جديد فيهما بالي
يا من سلا عن حبيب بعد ميته كم بعد موتك أيضاً عنك من سالي
كأن كل نعيم أنت ذائقه من لذة العيش يحكى لمعة الآلي
لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى ما شئت من عبر فيها وأمثال
ما حيلة الموت إلا كل صالحة أو لا فما حيلة فيه لمحتال
فهو في هذا ليس راثياً ، ولكنه بالوعاظ وخطباء المنابر أشبه

و خلاصة القول في أبي العتاهية أنه :

ما كان زنديقاً ، وما أظهر الزندقة ، وما فعل فعل المتزندقين ؛ وما كان لرجل
هو نديم الخلفاء وسميرهم ، والمقرب إليهم ، أن يتزندق في رحابهم - وكذلك
ما كان زاهداً ، وما كان شعره في الزهد لله وفي الله ، ولكنه طريق - لمكة في
شعره ، لاظهار الحسرة والأسى على حبيته عتبه التي ملأ الدنيا شعراً في التشبيب
بها . وإظهار حبه لها ، وهي تتمنع عليه ، وتتفر منه ؛ فرق له الرشيد ، لأنه تجرأ
وأكثر مسأله فيها فوعده بتزويجها إياه إن أجابت ، فلما فاتحها في ذلك الرشيد
اعتذرت ، وقالت : إني حلفت لأبيك بكل يمين يحلفها بر وفاجر ، وبالمشي إلى
بيت الله الحرام حافية ، كلما انقضت غنى حجة وجبت على أخرى ، لا أقصر على
الكفارة ، وكلما أفدت شيئاً تصرف به إلا ما أصلي فيه . وبكت بين يديه ،
فرق لها ورحمها وانصرف عنها وأخبر أبا العتاهية الخبر ، فمكث ملياً لا يدرى
أين هو ، أقاعد أم قائم (١) . ويثس بعد أن ردت الخليفة ، وعلم أنها لا تجيب
أحداً بعده أبداً ، فلبس الصوف وقال :

قطعت منها حبال الآمال وحططت عن ظهر المطى رحالي

ووجدت برد اليأس بين جوانحي فغنيت عن حل وعن ترحال
وقيل إن سبب حبسه قوله :

ألا إن ظيماً للخليفة صادني ومالي عن ظبي الخليفة من عذر
فلم لا ينشد أبو العتاهية شعراً في الزهد وبغض الدنيا ، وقد قطعت حبال
آماله في أحب الناس إليه ؛ وإنما هو شعر ما كان لله وفي الله كما قلت ، ولكنه
أنشد يسرى عن نفسه لوعة الحزن ، ويفرج كربة الهم التي اتابته من أجل عتبه .
ولو أنه كان مجبراً حقاً لما نعى على العلماء اختلافهم ، وبكتهم على كثرة
مؤاخذه بعضهم بعضاً ، قال :

بكي شجوه الاسلام من علمائه فما اكثرثوا مما رأوا من بكائه
فأكثرهم مستقبح لصواب من يخالفه مستحسن لخطائه
فأيهم المرجو فيها لدينه ؟ وأيهم الموثوق فينا برأيه ؟
ثم ماذا فعل المشيب برجل يكره الدنيا حتى يحن إلى شبابه ، أف يكون الحنين
إلى الشباب من فعل الزهاد ؟ اقرأ قوله :

بكيت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكاء ولا النحيب
فيا أسفا بكيت على شباب نعاه الشيب والرأس الخضب
عريت من الشباب وكنت غصناً كما يعرى من الورق القضب
ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب
رحم الله أبا العتاهية ! لقد لبس على الناس بشعره . فتسجوا حوله كلما كثيراً
وما هو من حيث دينه إلا رجل كعامة الناس ، وإن كان من حيث شعره بين
الناصية والنوابة .

محمد أحمد برانق